الشاعر وإبليس*

للفـــرزدق

جـاء في الديـوان أن الفـرزدق دخل يومـاً المـربد، فلقي رجلاً من موالي باهلة يقال له حُمام، ومعه نحْيٌ من سمن يبيـعه، فسامـه الفرزدق به. فقـال له حُمام: «ادفـعه إليك وتهب لي أعراض قـومي!» ففـعل. وقال وفي قـوله هجاء لإبليس:

أَلمْ تَـرَني عَـاهَدتُ ربّي، فَـإنَّـني
لَبَـيْنَ رتاجٍ قـائمٌ وَمَـقـامِ(١)
عَلَى قَسَمٍ: لا أشْـتِمُ الـدَّهْرَ مُسلماً،
وَلا خـارجاً مِنْ فـيَّ سُـوءُ كَـلامي
أَلمْ تَرني والـشّـعْـرَ، أَصْبَحَ بَـيْنَنَا
دُرُوءٌ منَ الإسـلامِ، ذاتُ حَـوَامِ
بِهِنَّ شَفَى الرَّحمـانُ صَدْري، وقدْ جَلا
عَـشَـا بَصَـري مِنْهُنَّ ضَـوْءُ ظَلامِ(٢)
فـأصبـحْتُ أسـعى في فكاك قـلادَةٍ،
رَهـيـنَـةِ أوْزَارٍ عَـلَـيَّ عِـظَـامِ(٣)
أحـاذِرُ أنْ أدْعَى، وَحَـوْضِـي مُـحَلَّقٌ؛
إذا كـانَ يَومُ الوِرْدِ يَـوْمَ خِـصَـامِ(٤)
ولَمْ أَنْتَـبِهْ، حَـتّى أحـاطَتْ خَطيئـتي
ورائِي، ودَقَّتْ لـلهَـوَانِ عِـظَامي(٥)

■■■

أطَعْـتُكَ، يَا إبْليسُ، سـبـعينَ حـجّـةً؛
فَلَمَّـا انْتَـهَى شـيـبي وَتَمَّ تمَـامي
فَـــررْتُ إلى رَبّـي، وَأيْقَـنْتُ أنَّـني
مُـلاقٍ لأيّـام المَنونِ حِـمَـامي(٦)
ولمّا دَنَـا رَأسُ الَّتي كُنْـتُ خَـائفـاً،
وَكُنْتُ أرى فـيـهـا لِقـاءَ لِزامِ(٧)
حَلَفْتُ عَـلى نَفْـسـي لأجْـتـهِـدَنَّهَـا
عَلَى حَـالـهـا: مِنْ صِحَّـةٍ وَسَـقـام
ألا طَالَمـا قـدْ بِتُّ، يُـوضِعُ نَاقـتي
أبو الجِنّ، إبليـسٌ، بغـيـر خِطَامِ(٨)
يَظَـلُّ يُمَنّـيـني عَلَـى الرّحْلِ وَاركـاً،
يَكُـونُ وَرَائي مَـرّةً وأمَـامي(٩)
يُبَـشّـرُني أنْ لَـنْ أَمُـوتَ، وأنَّهُ
سَـيُـخْلِـدُني في جَـنَّةٍ وَسَـلامِ

فَـقُلْتُ لَـهُ: هلاَّ أُخَـيَّكَ أَخْـرَجَتْ
يَمينُكَ مِن خُضرِ البُحُورِ طَوامي(١٠)
رَمَـيْتَ بِهِ فـي الْيَـمِّ، لَمَّا رَأَيْتَـهُ
كـفِرْقَـةِ طَوْدَيْ يَذْبُلٍ وَشَـمام(١١)
فَلَمَّـا تَلاقى فَـوْقَـهُ الموجُ طَامِـياً،
نَكَـصْتَ، وَلَمْ تَـحْـتَلْ لَهُ بِمَـرامِ
ألمْ تَأْتِ أَهْلَ الحِـجْرِ، والحِجْرُ أَهْلُهُ
بِأَنْعَمِ عَـيْشٍ في بُيُـوتٍ رُخـام(١٢)
فـقُل: أعـقِروا هذي اللَّقُوحَ، فَـإِنَّها
لَكُمْ، أَوْ تُـنِيـخُـوهَا لَقُـوحَ غَـرَامِ
فَلَمَّـا أَنَاخُـوها، تَـبَـرَّأتَ مِنْـهُمُ،
وَكُنْتَ نَـكُوصـاً عِنْدَ كُلِّ ذِمَـامِ(١٤)
وَآدَمُ قَـدْ أَخْـرَجْـتَـهُ، وَهوَ سـاكِنٌ
وَزَوْجَـتَـهُ، مِنْ خَـيْـرِ دارِ مُـقـامِ
وأَقْـسَـمْتَ، يـا إبْليسُ، أنّكَ ناصحٌ
له وَلَهـا، إقْـسـامَ غَـيْـرِ أثامِ
فَظلاً يَخـيطَانِ الـورَاقَ عَلَيْـهِـمـا،
بأيْديهِـمـا، من أكلِ شَـرِ طَعَـامِ(١٥)
وَكمْ من قُرونٍ قَـدْ أطَاعُوكَ، أصبَـحوا
أحـاديثَ، كـانُوا فـي ظلال غَـمـام
ومـا أَنْـتَ، يا إبليسُ، بالمَرءِ أبتـغي
رضـاهُ، ولا يقـتـادُني بِزمـام
سأجزيكَ، مِنْ سَوْآتِ مـا كُنْتَ سُقْتَني
إلَيْـهِ، جُـروُحاً فـيكَ ذاتَ كـلامِ(١٦)
تُعَـيِّـرُها في النّارِ، والـنّارُ تَلتـقي
عليك، بِزَقُّـومٍ لَهَـا وَضِـرَامِ
وَإنّ ابْـنَ إبلـيس وإبلـيسُ أَلْـبَنَـا،
لَهُمْ بِـعَـذَابِ الـنَّاسِ كُلَّ غُـلامِ(١٧)
هُمـا تَـفَـلا في فيَّ مِنْ فَـمَـوَيْهِـمَـا
عَلى النَّابِحِ العـاوي أَشدَّ رِجَـامِ(١٨)

■■ الهوامش:

* ديوان الفرزدق ٢/٧٦٩

(١) الرتاج: البـاب العظيم، واسم مكـة؛ فـيكنى بالـبـاب عن الكعـبة؛ لأن منه يُدخل إليـها. المقام: هـو الحجر الذي يحـمل أثر قدمي إبراهيم الخليل في الكعبة.

(٢) عشا البصر: سوء البصر بالليل.

(٣) القلادة: مايجـعل في العنق من الحلي، ويعني بها الطوق، والقيد.

(٤) الحوض المحلّق الحوض الذي جف ماؤه. يوم الخصام: أي يوم الدينونة.

(٥) للهوان: للضعف.

(٦) الحمَام: الموت.

(٧) اللزَام: الموت والحساب.

(٨) يوضع ناقتي: يسيـرها. الخطـام: حبـل يُجـعل في عنق البعـير ويثنى في خطمه أي أنفـه، وكل ما وضع في أنف البعـير ليقتاد به.

(٩) يُمنيني بكذا: يجـعله لي أمنيـة. ورك الراكـب: ثنى رجله ليستريح، أو اعتمد على وركه.

(١٠) أخيَّك: تصغـير أخيك، أراد به فرعون الذي غرق بجـيشه في البحر الأحمر. الطوامي: الممتلئة.

(١١) الفرقة: الطائفة. يذبل وشمام: جبلان في أرض باهلة.

(١٢) الحجْر: ديار ثمود في ناحية الشام عند وادي القرى.

(١٣) اللقَوح: الناقة. الغـرام: الهـلاك. وفي البيت إشـارة إلى قصة ثمود وعقر ناقة صالح.

(١٤) الذمام: الحق والحرمة؛ لأن نقضه موجب الذمّ.

(١٥) الوراق ج ورق.

(١٦) الكلام ج كَلم: وهو الجرح.

(١٧) ابنَ ابليس: كل من تشيَّع له. ألْبَنَه: سقاه.

(١٨) في روايـة ثانيـة «أشـدُّ لجـامي» وأراد بالنـابح العاوي جريراً.

تراث الشعر